مَكَانة
الحَقِيْقَة الدِّيْنِيَّة

الشيخ د.
محمد محمدي النورستاني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَه، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خير الحَدِيْث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النَّار.

ثُمَّ أما بعد:

أيها الإخوة الكرام!

الهدُف من هذه المحاضرة هو ترسيخُ الإيمان بالكتاب والسُّنة، وبكلما ثبت فيهما ترسيخ الإيمان بذلك كلِّه، وعدمُ الاعتداد بالخرافات التي يزعمُ أصحابُها أنها حقائق، وما أكثر تلك الحقائق الزائفة التي هي أساطير وظنون وتخرُّصات، ولا تمُت إلى الحقائق بصلة، ما أكثرها، وأصحابُها يجعلونها مُقابلًا للحقيقة الدينية التي ثبتت بالكتاب والسنة، هذا هو الهدف من هذه المحاضرة، ليس الهدف هو التفصيل في الحقيقة الدينية، والتفصيل في الحقائق التي تُجعل مقابلًا للحقيقة الدينية قديمًا وحديثًا، لأن التفصيل في هذا الموضوع يحتاج إلى وقتٍ طويلٌ جدًا، بل إن هذا الموضوع يحتاج إلى

ندوةٍ موسعة، يُشارك فيها أهل العلم الكبار، ويتناولون الموضوع من أطرافه المُختلفة، ويلقون الضوء على هذا الموضوع بذكر الأمثلة للحقائق التي يُزعم أنها حقائق قديمًا وحديثًا، والتي لا نشك في بطلانها.

أولًا: ما هي الحقيقة؟

الحقيقة لُغةً: من حقَّ الشيء إذا ثبت، ثم نُقل إلى الكلمة الثابتةِ أو المُثبتةِ في مكانها الأصلي، والتاء في الحقيقةِ للنقل من الوصفية إلى الاسمية.

فإذا أردنا أن نُعرف الحَقِيقَة اصطلاحًا نُشير إلى أنَّ تعريفات الحقيقة مُتعددة، وقد اختلف المُعرِّفون في تعريف الحقيقة حسب تخصصاتهم، وحسبَ خوضهم في العلوم المُختلفة، فهناك الحقائق بمعنى: المُكاشفة والمشاهدة، وهناك حقيقة الحقائق وهي المرتبة التي يصل إليها الذين قد وصلوا إلى اليقين كما يقولون، وهناك حقائق أخريز

وما أقصد بالحقيقة هُنا: هو الحقُّ الثابت، لأن الحقيقة مُشتقةٌ من الحق، وهو الثابت واللازم والمُستمر، وهو مُقابلٌ يُقابل به الباطل، والحقيقةُ هي الأمور التي ثبتت بالبرهان، والتي لا يجوز التشكيك والشكُّ فيها.

ثانيًا: بماذا تثبت الحقيقة الدينية؟

نحن لما نقول: الحقيقة الدينية، نتحدث عن ماذا؟ وكيف تثبت الحقيقة الدينية؟

الجَواب: أن الحقيقة الدينية تثبت بالأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة، فالقرآن حقٌ لا ريبَ فيه، والسُّنةُ النبوية الثابتةُ حقٌ ولا يجوز أن يُستراب في شيء من ذلك، يقول الله ﷻ عن كتابه المجيد: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾[(١)]، ويقول سبحانه: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

القرآن يشتمل على الحق، ويأمر بالحق، يأمر بتوحيد الله ﷻ في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاتِهِ وأفعاله، وبكل ما هو حقٌ في جميع الأمور يقول الله ﷻ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝٢ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[(٣)]، ويقول عن كتابه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (۝٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[(٤)].

والآيات التي وردت في هذا المعنى في القرآن كثيرةٌ جدًا نكتفي بما ذكرتها منها.

أما السُّنة النبوية؛ فهي قرينة القرآن الكريم في كونها وحيًا من الله ﷻ، وفي وجوب الأخذ بها والالتزام بها، والأدلة على ذلك كثيرةٌ:

---

(١) يونس (١٠٨).

(٢) الرعد (١).

(٣) الزمر (١-٣).

(٤) فصلت (٤١-٤٢).

منها: أن الله ﷻ بين أن السنة وحيٌ منه، يقول سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٥).

وسنة النبي ﷺ هي الحكمة التي أوتيها النبي ﷺ، يقول الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾(٦)، ويقول سبحانه مُمتنًا على نساء النبي ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾(٧)، وقد ورد ذكر الحكمة مُرادًا بها سنة النبي ﷺ في آيات كثيرةٍ من القرآن الكريم.

مما يدل أيضًا على كون السنة قرينة القرآن في كونها وحي من الله ﷻ: أن الله ﷻ أخبر في كتابه أن السنة مُبينةٌ للقرآن، يقول سبحانه: ﴿وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٨)، كما نسب سبحانه بيان النبي ﷺ للقرآن نسبه إلى نفسه المقدسة قائلًا: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(٩).

وهذا تأكيدٌ منه سبحانه؛ لكون السنة وحيًا منه سبحانه وتعالى، ويؤكد هذا بيان النبي ﷺ كيفية إقامة الصلاة وأنصبة الزكاة وغيرها من العبادات التي ورد بيانها وبيان تفصيلها في سنة النبي ﷺ.

فحفظ الله سبحانه للقرآن يشمل حفظ بيانه، وهو السنة النبوية.

---

(٥) النجم (٤).

(٦) البقرة (٢٣١)..

(٧) الأحزاب (٣٤)..

(٨) النحل (٤٤)..

(٩) القيامة (١٧-١٩).

ومما يدل على ذلك أيضًا: أن الله ﷻ قرن طاعته بطاعة رسوله ﷺ طاعةً عامةً مُطلقةً دون تقييد، يقول سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(١٠).

وقد جاءت في القرآن ست آيات تُبين أن طاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله بلفظ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾(١١)، وتصريفاتها، ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١٢).

وجاء في القرآن بمثل هذا الأمر في أحد عشر موضعًا: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وتصريفاتها.

ومما يدل على ذلك أيضًا أن الله ﷻ أمر المسلمين أن يرجعوا إليه سبحانه وإلى رسوله ﷺ حين تنازعوا، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(١٣).

ولو أن مسلمًا سمع النبي ﷺ يأمر بشيءٍ، أو ينهى عن شيء، ثم لم يأخذ بهذا بحجة أنه ليس في القرآن، فهو مُخالفٌ للآيات بإجماع الأمة، فالمسألة هنا هي الأخذ بأمر النبي ﷺ وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

---

(١٠) النساء (٨٠).

(١١) النساء (٦٩).

(١٢) النور (٥٦).

(١٣) النساء (٥٩).

﴿وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾[١٤]... وغيرها من الأدلة الكثيرة من القرآن الكريم، ذكرها الإمام الشافعي في «**الرِّسَالَة**» وغيره من العلماء.

وفي الآية السابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[١٥] في هذه الآية بيانٌ من الله ﷻ بدوام السنة وحفظها، وذلك من خلال أمره سبحانه بالرجوع إلى كتاب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن الرجوع إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته لا يكون إلا بالرجوع إلى سنته، وهذا كله يدل دلالةً قاطعةً على أن ما ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١٦] من حفظه للذكر يشمل حفظ السنة أيضًا، وهذا متفقٌ عليه بين **أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة**.

فأيُّ أمرٍ ثبت بالأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة، ولم يكن هناك إشكالٌ في دلالته، وفي ثبوته فيما يتعلق بالأحاديث يجب الاعتقاد به إن كان اعتقاديًا، والعمل به إن كان متعلقًا بالعمل، ويجب اعتباره حقيقةً شرعيةً تُدفع لأجلها جميع الظنون والأوهام التي تعتبر حقائق عند بعض الناس، ويجب الاعتقاد، لأن مصادمة تلك الحقائق المزعومة للأدلة الشرعية دليلٌ قطعيٌ على تهافتها، وبُعدها عن مرتبة الحقيقةِ ومرتبة الإلزام.

وبالتالي: فأيُّ قدحٍ في الكتاب والسنة ثبوتًا أو دلالةً من حيث العموم، فإنه يستهدف الحقيقة الدينية من بعض جوانبها، ويُهون من شأنها في بعض نواحيها، ويعبث بقطعيتها من بعض جهاتها، بل إنه يُمهد السبيل إلى تضعيفها وتهميشها، بل وإلى إسقاطها تمامًا إذا زاحمتها ما يعتبره بعض الناس حقائق لا تقبل الجدال

---

(١٤) الأحزاب (٣٦).

(١٥) النساء (٥٩).

(١٦) الحجر (٩).

والنقاش، وقطعيات تستوجب بزعمهم تقديمها على ما يُصادمها، ويقينياتٍ يُسقط لأجلها اعتبار جميع الأدلة والبراهين بما فيها أدلة الكتاب والسنة، فجميع الطواغيت التي تستهدف النصوص ليست إلا معاول لإضعاف النصوص كلها أو بعضها، كالتأويل والمجاز، والقول بظنية أخبار الآحاد عمومًا، وتقديم العقل على النقل والقول بظنية الأدلة اللفظية دلالةً، والتفويض والتخييل.. وغيرها.

أيها الإخوة! إنها قضية الإيمان، الإيمان بالله ﷻ وكتبه ورسله، وبقية أصول الإيمان والإسلام، فمن كان إيمانه راسخًا وعقيدته متجذرة، ورضاه بالإيمان متأصلًا قد تمكن من قلبه، وقبوله للإسلام والإيمان عميقًا لم يتلوث بشيءٍ من المفاهيم الدخيلة، وكان تصديقه بذلك كلِّه جازمًا لا يتردد لحظةً في تقديس الحقيقة الشرعية، وفي التصديق بها، والإيمان المُطلق والاستسلام التام لها، وجعلها قاعدةً لانطلاقه ومنطلقاته، ورفض كل ما يُصادمها أو يهون من شأنها واعتبارها خرافاتٍ لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

أُشير هنا إجمالًا إلى مُجمل الحقائق التي عُرضت بها الحقائق الشرعية، طبعًا هي كثيرة، أنا أُشير هنا إلى بعضها، أو إلى أشهرها.

أولًا: ما يُزعم أنه حقيقةٌ عقلية، الحقيقة العقلية وما أدراك ما هي الحقيقة العقلية، والحقيقة العقلية تشمل الدين الذي عليه الفلاسفة، والدين الذي عليه المتكلمون.

أما الحقائق التي يدَّعيها الفلاسفة، فهي حقائقٌ بعضها قد تُصنف من الأساطير التي قد تُضعف الثكالى، أنا أذكر هنا مثالًا لتلك الحقائق، وهو مذهب أرسطو في خالق هذا الكون، أرسطو وهو ذلك الذي يُزعم أنه المُعلم الأول، يقول: «خالق هذا الكون لا يدري عن هذا الكون بتاتًا» وأرسطو صريح في هذا، يقول: «مَن خلق هذا الكون» وهو الذي يُسميه المبدأ الأول يقول: «**لا يُناسبه أن يدخل في علمِهِ شيءٌ مما يتعلق بالكوائن والعوالي، والمخلوقات**». هذه هي حقيقة أرسطو سبحان الله، بهذه

الحقيقة، وهي إذا قُلْنَا: أنها خرافة نكون قد زكيناها، بمثل هذه الحقائق يزعمون أنهم ينطلقون دون قيدٍ أو خلفيةٍ مُعينة، ويتهمون المسلمين بأنهم ينطلقون من خلفياتٍ عقدية، وهكذا المُلحدون في هذا العصر، لما تتحدث عن مُلحد يقول لك: أنت تنطلق من خلفيةٍ دينية كُن حُرًا مثلي، انطلق دون قيدٍ. **نقول له**: ألست تنطلق من خلفيةٍ وثنيةٍ أو إلحادية؟ منطلقاتك هذه منطلقات أرسطو ومنطلقاتك وغيرك من الملحدين أو الوثنيين أو من يُزعم أنه من الفلاسفة منطلقاتكم هي وثنية أو إلحادية، إذًا هناك منطلق عندي، وهو منطلق الوحي، وما أشرفه وأحسنه من منطلق! أما منطلقاتك، فهي ظنونٌ وخرافات.

ومن الغريب: أن ما كانت تُزعم حقائق فلسفية جاءت الثورة العلمية، وأول ما أبطلتها أبطلت تلك الحقائق التي كانت تُزعم أنها حقائق، كلام أرسطو في بعض العلوم التي كانت تُزعم أنها حقائق، والناس اتخذوها حقائق أكثر من ألف قرن، جاءت الثورة العلمية وأبطلت تلك المزاعم أبطلها الكفار قبل المسلمين، هذا حال هذه الحقائق التي لا زال يُقدسها كثيرٌ من المنتسبين إلى الإسلام.

أمَّا الحقائق التي يدعيها المتكلمون، وكما تعرفون: المتكلمون كتبهم يُزعم أنها كتب العقائد -وللأسف- هي التي تُدرَس في كثيرٍ من الجامعات الإسلامية العريقة، تُدرس فيها على أنَّها كتب العقائد، هي في الحقيقة مُخلفات الفلسفات القديمة، ولذلك جعلتُها تحتَ عنوانٌ واحد: الحقائق التي يُزعم أنها حقائق عقلية، هي في الحقيقة مُخلَّفات الفلسفات القديمة، والعقل عند المتكلمين عبارة عن رأي أرسطو وغيره، أنا أضربُ لكم مثالًا أو مثالين:

المثال الأول: الخلاف الطويل العريض الذي يجري في صفات الله ﷻ بين أهل السنة والمخالفين، سبب هذا الخلاف: النظرة المادية التي أخذها المتكلمون من الفلاسفة، لأن الفلاسفة ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة، وبالتالي يقولون: أن إثبات أي

شيءٍ ثابت هذا قولٌ بكونه مُشابهًا للحقائق الموجودة، فإذا كنت تُثبت الإله الذي خلق هذا الكون، فإما أن تثبته حقيقةً مُجردةً عن الأوصاف، وهذا الذي هم يقولون به، أو تثبته موصوفًا بصفاتٍ تميزه عن غيره، وهذا قولٌ بالتشبيه.

وبالتالي نأتي للمتكلمين، فنجدهم كلهم قد وافقوهم على هذا الأصل، بدءًا من الجهمية والمعتزلةِ والأشاعرة والماتريدية كلهم يوافقونهم على هذا الأصل، ولكن موافقتهم على تفاوت: فبعضهم يوافقونهم في الأصل كُلِّه بدون تفصيل، وبعضهم يوافقون في الأصل، ويُخالفونهم في التفريق،وبالتالي يكون أصله مع الفلسفي وبعض تفريعاته مع المسلمين، وهكذا يكون مُضطربًا، بينما يزعم أنه عقلٌ، وبينما جاء في الكتاب والسنة.

وهناك أيضًا أمثلة أخرى قد يطول بنا المقام فنتركها.

الخلاصة: أن الحقائق التي يزعمها المتكلمون هي مُخلفات الفلاسفة، الفلسفة اليونانية، الفلسفة الهندية، الفلسفة المصرية القديمة، كلها لها بصمات في علم الكلام.

وهناك حقيقة أخرى هي من أغرب الحقائق، هي أغرب من الحقيقة التي يتحدث عنها المتكلمون، وهي الحقيقة الصوفية: تلك الحقيقة التي يُزعم أنها حقيقة، وهم يزعمون أن حقائقهم يوصل إليها بالمشاهدة والمكاشفة، فإذا نازعتهم فيما يسمونه حقائق اتهموك بالقصور في الوصول، وبالتالي: اعتبروك لست أهلًا للوصول إلى هذه الحقائق، وبالتالي أنت في وادٍ وهذا الذي وصل في وادٍ آخر، حتى إنهم يزعمون أن أي حقيقة عليها دليل مُشاهد، هذه درجةٌ أدنى من الحقيقة التي لا يمكن أن تُدلل عليها، ولذلك الحقيقة التي لا يمكن أن يُدلل عليها هذا الذي وصل يسمونها حقيقة الحقائق.. وهكذا تجد أن الشيطان قد وسوس، وجعلهم يهلوسون وللأسف يصدق

كلامهم كثيرٌ من المنتسبين إلى الإسلام، ويطعنون في الكتاب والسنة بسبب هذه الخرافات.

الحقيقة الثالثة التي أتحدث عنها والتي بها أختم حديثي: وكان الهدف من هذه المحاضرة أن أُفصل في هذه الحقيقة، لأن هذا سأتحدث عنه شيء يُشغلنا هذه الأيام، الحقيقة العلمية، الحقيقة العلمية مقابل الحقيقة الدينية، هكذا تجدون هذا في الغرب لمَّا اشتهرت فيهم المفاهيم الكنسية التي كانت خليطًا من فلسفة أرسطو، وبين النصرانية المُحرَّفة، ثم جاءت الثورة العلمية، وكشفت زيف كثيرٍ من تلك الحقائق، برز هذا المُصطلح (**الحقيقة العلمية مُقابل الحقيقة الدينية**)، هذا في الغرب، وكثيرٌ من طُلابنا الذين يذهبون إلى هناك، وينهلون من علومهم، ويتلوثون بتلك الأمراض، يأخذون هذه الأمور مُسلمات ويرجعون بها إلى بُلدانهم ويُشغلون الناس بهذه الأمور.

الحقيقة العلمية مُقابل الحقيقة الدينية، هذه خرافة، نحن عندنا في دين الإسلام الحقيقةُ الدينية هي الحقيقة العلمية، ليس هناك منافاة، أو منافرة بين الحقيقة العلمية، بل كما سأذكر ما يُزعم أنها حقيقة علمية إن ثبتت، فهذه دليلٌ من أدلة صدق الكتاب والسنة، وليست هناك أي منافرة بين الحقيقة الدينية والحقيقة العلمية.

أولًا نقول: أن من الغريب أن المتخصصين في العلم في الفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم المادية يرون أن جميع منجزاتهم العلمية وابتكاراتهم المعرفية، وتجاربهم واكتشافاتهم المستمرة تُشير إلى نسبية الحقيقة العلمية، بينما المُندسون، والمُستغلون، المُلحدون وغيرهم يتجاهلون هذه الحقيقة الصارخة، ويرون أن الحقيقة العلمية يقينية.

إذًا أصحاب التخصص يُخالفونهم فيما يدندنون حوله.

ثانيًا: لا تنافر بين الحقيقة الدينية والحقيقة التجريبية.

إن المتأمل لآيات القرآن الكريم، والمعنية برصد جملةٍ من الحقائق التي اشتمل عليها هذا الكتاب العظيم، يرى وجود نوعين بارزين من الحقائق يُمكن التمييز بينهما وهما:

النوع الأول: الحقائق الأساسية الكبرى التي تم عرضُها في القرآن بأكثر من طريقة، وتكررت الدعوة إلى الإيمان والتصديق بها، وجرى في الوقت ذاته تأييدها بالأدلة والشواهد والبراهين، وهذا النوع هو أصول الإيمان الكُبرى كأركان الإيمان الستة، والإيمان بالوحي طريقًا وحيدًا لمعرفة مراد الله سبحانه وشرعه، وتكليفاته لسائر البشر، وما أشبه ذلك من الأصول العقدية والتشريعية الكُبرى.

النَّوع الثاني: نوعٌ ورد تبعًا ومُصاحبًا للحقائق الأساسية السابقة، وورد كوسيلةٍ لتعضيد النوع الأول، وقد تكرر ذكره في كثيرٍ من سور القرآن على ضروب وأشكالٍ متنوعة، وقد ذُكر هذا النوع في القرآن للاستدلال به على صحة النوع الأول.

إذًا هذا الذي يُجعل مُقابلًا للنوع الأول هو دليل على هذا النوع الأول، ويشمل هذا النوع على مشاهد الكون بآفاقه الواسعةِ، وأنواع المخلوقات، والحوادث المتعاقبة، كما يشتمل على جوانب حياة الإنسان المختلفة خلقًا وتكوينًا وميولًا وغرائز، وغير ذلك من التفصيلات.

طبعًا هذه الفقرة مأخوذة من كتاب «مناهج الاستدلال» على مسائل العقيدة للدكتور أحمد كوشتي وهو كتابٌ جميل.

وكل هذا الذي ذكرته النوع الأول والنوع الثاني، والعلاقة بين النوعين، كل هذا يدل على مدى العلاقة الوثيقة بين النوعين، فأحدهما: دليلٌ على الثاني، فالله ﷻ يدعو عباده إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: والتفكير في آياته، وتدبرها، وتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة، هذا كلام ابن القيم، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته، وصدق ما أخبرت به رُسله عنه، فالمصنوعات شاهدةٌ تُصدق الآيات المسموعات، مُنبهةً على الاستدلال بالآيات المصنوعات، يقول سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧)؛ أي: أن القرآن حقٌّ، فأخبر أنه لابد من أن يُريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حقًا، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله ﷺ، فآياته شاهدةٌ بصدقِهِ وهو شاهدٌ بصدق رسوله بآياته، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، هذا كلام ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد».

وقد أثبتت الدراسات المعاصرة وكثيرٌ منها لغير المسلمين أنَّ ما يشتمل عليه القرآن من الإشارات إلى الحقائق الكونية لم يحصل إثبات بطلان شيءٍ منها إلى الآن، بل إنها قد تأيدت ما ورد في القرآن، قد تأيدت بتلك الدراسات، وثبت صدقها مما يدلُّ على بطلان جعل الحقيقة الدينية مُقابل الحقيقة العلمية، نحن لا نحتاج إلى الاستدلال بأقوال الغربيين والشرقيين لصدق الكتاب والسنة ما نحتاج إلى مثل هذه الأمور، سواءً أثبتت دراساتهم ما أثبتت دراساتهم، نحنُ نؤمنُ بأن ما ورد في الكتاب والسنة حقٌّ يجب الالتزام به واعتقاده كما ذكرت.

ولكن نستأنس بمثل هذه الأمور للرد بها على هؤلاء المغرورين الذين اغتروا بتلك الأسماء، إذا قيل له: فلان الكافر يستمع إليه كأنه وحيٌ من الله ﷻ، أما الأدلة

---

(١٧) فصلت (٥٣).

من الكتاب والسنة فليس لها لك الوزن الذي يكون لأولئك الغربيين والشرقيين عندهم.

بل إن العلم كله والحقيقة كلها فيما اشتمل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

ثالثًا: إن الحقائق التي كان يتبجح بها الماديون، ويطعنون بها على حقائق الدين، ويجعلونها في مقابل الحقائق الدينية في بداية الثورة العلمية، أثبت العلم التجريبي نفسه بطلان كثيرٍ من تلك النظريات، وكمثال: النظرية التي جاء بها نويتن، وهي نظرية الأثير، اعتُبرت هذه النظرية هي الحدثُ الأبرز في الثورة العلمية، واعتُبرت حقيقة، بل نُسجت حولها بقية الحقائق، واعتُبرت أصلًا من أصول المعرفة، واستمرَّ عليها الماديون قرابة قرنين، بعد ذلك جاءت نظرية الذرة، وما هي الذرة؟ هي في الصغر بشكل لا تتصور، اكتشاف الذرَّة، وأيضًا تجربة مايوكرسون ومورلي سنة ألف وثمانمائة وسبعة وثمانين بعد قرنين من هذه النظرية التي أشغل بها العالم أثبت هذا كله بُطلان نظرية الأثير، سبحان الله! قرنان من الزمن وهذه النظرية هي قرآنهم، وهي مُصحفهم، وهي كل العلوم التي تدور حول هذه النظرية... وهكذا الأمثلة كثيرة، ولكن يبدو أن الوقت قصير.

أنا أقول: لا زال العلم الحَدِيْث أنما اعتقده الناس حقيقةً في فترةٍ لم يكن سوى نظريةٍ تعدى أصحابها طورهم، فادَّعوها حقائق، ولذلك يؤمن كثيرٌ من العلماء الآن بنظريةٍ نسبية، بل إن بعضهم اقترب إلى ما كان يُنقل عن السفطائية، النظرية النسبية هذه من تعمقها عند بعضهم اقتربوا إلى السفسطائية، أما النظرية النسبية هذه التي يقول بها العلماء الآن.

فكيف يزعمون بعدها أنهم يُبطلون حقائق الدين بتلك النظريات، علمًا بأنما صح من العلم التجريبي لا يمكن أن يكون مُصادمًا للنصوص، بل هو مؤيدٌ لها، ومُعاضدٌ

لها، فأيُّ شيءٌ يُزعم أنه حقيقة، وتُعارض به النصوص لم ولن يكون إلا وهمًا وظنًا وتخمينًا وتخرُّصًا وهوىً وضلالًا وتيهًا.

والله تَعَالى أَعْلَم

وصَلَّى الله وسلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن.

~ تمت ~